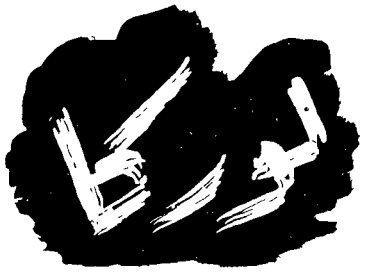

لوركا والتحول العربي في شعره

بقلم ناديا شعبان

القت الاديبة ، ناديا ظافر شعبان ، محـــاضرة قيمة ، بدعوة من جمعية خريجي الجامعات والمعاهد الاسبانية ، في المركز الثقـافي الاسباني ببيروت ، بعنوان « التحول العربي في شعر لوركا » عرضت فيها بعمق وشمول حياة هذا الشاعر الاسبـاني الفذ والاثر العربي في شعره .

« مظهر لفلاح أندلسي ، متوسط القامة ، وعينان عتمتان كالليل، مليئتان بالحيوية والكبرياء ، ومشعتان ذكاء .. شبيهتان بالفرح والحزن اللذين يمزجهما في قصائده » .

ان كارلوس مورلاتفيش سفير التشيلي في مدريد ١٩٢٨ يصف بهذه الكلمات صديقه الحميم فيديريكو غارسيا لوركا ، أحد أعظـم الشعراء المعاصرين في العالم ، وأبعدهم صيتا ، وأروعهم فكرة فـي التعبير عن الحياة والموت والحب .

وقد ولد لوركا في فوانتيه فاسكيروس ، أي نبع فاسكيروس ، في ضواحي غرناطة ١٨٩٩ حيث قضى طفولته .

أبوه دون فيديريو غارسيا رودريغيز فلاح أندلسي يوحي وجهـه بالطيبة والحكمة ، وأمه دونا فيسنتا لوركا روميرو ورث عنها فيديريكو الصغير الذكاء . أختاه ايزابيلا وكونتشيتا، وله أخ واحد فرنسيسكو. كانت العائلة تعيش في جو يخيم عليه الصفاء .

عاش طفولته قرب الارض ، ممتزجا بحياة شعب القرى ، درس في معهد المريه ثم عاد الى غرناطة ، وانضم الى جامعتها ، وأجيز فـي الآداب والحقوق ١٩٢٣ ، وكان رساما ويجيد العزف على البيانو .

وقد نشر لوركا أول كتبه النثرية « انطباعات ومشاهد » عـام ١٩١٨ ، ثم رحل الى مدريد بعد زمن وأقام في نزل الطلبة الذي كـان مركز فكر ، ولدت فيه أشهر الاعمال الادبية ، التي أعادت لاسبانيـا مجدها الفكري .

في هذا النزل بالذات ، كان لوركا يلقي قصائده ، وهناك التقى الرسام الشهير سلفادور دالي والشعراء : لويس سيرنودا ، خوزيـه بيرغامين ، وخوان رامون خيمينز ، وكان الجميع يقضون سهراتهم في منزل الشاعر خيمينز الذي يبدو اثره من شعر لوركا .

ذاع صيت شاعرنا في دائرة هؤلاء الاصدقاء ، وفي أواسط مدريد الادبية والثقافية ، وكان الجميع متفقين على انه « أعظم شعراء أبنـاء جيله » فاطلقت عليه ألقاب كثيرة : الشاعر الطفل ، « ملاك غرناطة » ، مشعوذ الاندلس ، الشاعر الفجري .

كان لوركا يريد أن يجدد كل التقاليد الشعرية لاسبانيا ، ويكيفها مع الاسلوب الحديث .. في الوقت الذي كانت فيه غالبيـة الشعراء المعاصرين له ، يخضعون للتأثيرات الاجنبية ، الفرنسية على الاخص، يستوحون فاليري ، وشعراء السريالية ، ويحاولون ان يزرعوا فـي الجزيرة الايبيرية عصرية مشابهة للحركات الفكرية التي لم يعد أحد يذكرها في باريس .

فيديريكو غارسيا لوركا شاعر غنى الحياة ، ورسم أبعاد صورهـا الكبرى : الموت والحب والكراهية ... وكل ما يحيط بالانسان مـن اشياء وموجودات : من سماء وشمس وقمر ، الى جبل ، وواد ، ووعر وشجر ... غنى الطفولة والموت والعالم ، بالوان زاهية ، ساطعـة ، عتمة ، هادئة ، مضطربة او صافية ...

نحن نتعرف اليه في المرحلة الاندلسية الاولى ، مثل الرسـام الشهير فان غوغ ، شاعرا مجنونا بالالوان . فدروب الاندلس حمراء ، ومنابع النهر الكبير حمراء ، وجهات مدنه اصطبغت بلـون العقيق ، جباله صهباء ، فاكهته مخمل أصفر ، هواء جنـوبه اسمر ، أخضر ، زمرد اخضر ، قطره اخضر ، صباحه وغسقه اخضر .

الاخضر أفضل الوانه : هو يغني في كتاب انشودة غجر ، فـي الانشودة المروبصة (قصة حب مستحيل بين غجر ، يبحثون عن مواعيد لقاء ، في مفكرة الاحلام) ... هو يغني بلسان الفجرية ، التي تنادي حبيبها الجريح ، المسافر بعيدا في مركب ، هربا من خصوم يطاردونه :

أخضر ، أريدك أن تكون أخضر
نسيم اخضر ، واغصان خضراء
المركب في البحر
والفرس في الجبل ..

وعندما يعود الفجري الجريح ، لبيت حبيبته ، تاركا وراءه خطوط دم ، يتسلق الشرفة ليلقاها ، فتكون الفجرية قد تعبت من الانتظار ، فجنت ورمت بنفسها في أعماق بئر ..

على وجه البئر ،
كانت تتأرجح الفجرية
جسد أخضر ، وشعر أخضر ...

الام يرمز لوركا ، الذي يطلي ويلون كل شيء بالاخضر ؟ الاخضر هو انعكاس لفكرة الحياة والموت فـي شعر « مشعوذ الاندلس » ... لجأ الى استعماله قبله غونغور من شعراء القرن السابع ... ونحـن نكتشف الرمز الحقيقي لهذا اللون ، في ميثولوجية المصريين القدامى، الذين كانوا يصورون اوزيريس اله النبات والموت ، باللون الاخضر ،

اما في الميثولوجية الاغريقية ـ الرومانية ، فقد كان الاخضر يرمز الى الحياة فقط ، لانه كان لون فينوس والطبيعة ، وخصب الحقول ...

والوانه الاخرى الضاحكة ، الكئيبة ، الصارخة ، من اين استوحاها ليلون بها وجه الافكار ؟ انها كما يقول الشاعر نفسه « الوان الاحذية الحريرية للاندلسيات ، لازهار الحمراء ، من نسرين وياسمين ، من آس ورند وورود » .

انه من العبث فعلا ، ان نفصل بين لوركا وارضه غرناطة .. وذلك في جميع مراحل حياته الشعرية ، حبه لغرناطة يدفعه ليتسلل الى اعماق تاريخها الحضاري ، ويسقي بذارا عربيا طيبا نثره قبلا في تربة : « كتاب القصائد ، الاغاني ، غناء طيب العرب وانشودة غجر » . كتب المرحلة الاندلسية ، بذارا ارتوى ونضج ، وارتفع قليلا عن الارض ، في « ديوان التماريت » آخر كتاب شعري نظمه قبل وفاته .

وقد امتزج بتراب غرناطة ، بتراب اندلس الجبل الاسمر ، اندلس الانهر الكبيرة والاساطير ، اندلس الزيتون والسرو والنسرين ، هو يرسم ببراعة المناظر الاندلسية ، يربطها بالحياة ، يربطها بالموت ، يغني الحان اشبيلية القديمة :

يا قادش ، التي يغطيها البحر ،
لا تتقدمي في هذا المكان ..
يا اشبيلية انهضي ،
حتى لا تختنقي في السافية ..

وهو يحملنا في كل كتاب ، في كل قصيدة ، الى ارض الجنوب لنتامل معه ببراءة وطفولة الجمال الذي يحيط بنا :

الجنوب .. سراب
انعكاس نور ..
الجنوب هو الرمول اللاهبة ،
هو النسيم يضحك في اعالي شجر الصفصاف

لوركا ، يحمل في اعماق اعماقه ، الى حيثما يذهب ، واينما حل ، صورة اروع مدن الجنوب : الاندلس ، التي دمغتها الحضارة العربية البعيدة بطابع سحر جذاب ، واهدتها اروع واجمل آثار تعبر عن عظمة فن الانسان الذي ابتدعها ..

نحن لا نستطيع ان نفهم شعر لوركا بعيدا عن حبه لغرناطة ، فاحلى مدن الجنوب الاندلسي ، تبقى مفتاح السر الى عالمه الشعري.. هو لا يفتأ يغني قصر الحمراء ، وحي البيازيت المواجه له ، الذي تحضنه الشمس مساء ، وتتراءى له ابدا حدائق الخلفاء بالوانها الزاهية : حيث حاكت يد الطبيعة والنباتات الاندلسية ابدع روض يمكن ان تقع عليه عين بشر .

غرناطة ، كاستيليا ، فالنسيا ؟.. الشاعر متحد بارض بلاده اينما ذهب وحيثما حل ، هو يهدف لا شعوريا ان يجمع في شعره كل اسبانيا : اسبانيا العلماء والشعراء والمغنين الشعبيين ، اسبانيا هضبة كاستيليا وشواطىء البحر ، اسبانيا الماضي والحاضر ، انه يكتشف بغريزته السبل الاكثر فاعلية ليتحد مع حقائق ارضه .. في رجل واحد تتحدث كاتالونيا ، اندولوسيا ، كاليسيا والمشرق ... يقول الناقد الفرنسي اندريه بيلاميش : « آلاف الاصوات المنفصلة ، التي كانت تبحث عن بعضها البعض ، تلتقي في سيمفونية شعره الرائعة الفريدة : اصوات ساذجة ، عالمة ، قديمة ، حديثة ، اصوات شعراء بلاط ومغنين مجهولين ، اصوات لرومان ومحاربين عرب قدموا من الشرق ، وكانوا يكتبون « قصائد » عن احواض الحمراء » .

غرناطة ، تبقى ابدا نبع الوحي الصافي لقصائده ، هو يحن ابدا الى طفولته في تلك الارض الندية الخيرة ، يجمع حوله الاطفال ، ويتحدث اليهم عن فردوسه الضائع ، لعبه قرب سواقي الاندلس ، عن طهارة القلب التي تنيرها صورة السيد ، ومحبة العائلة ، واساطير سان جاك ، الذي يخترق السماء على ظهر فرس باهر ، ويتمنى ان يوقف سير الزمن مثل شكسبير ، فيقول في « كتاب القصائد » :

أحب على تلك الشجرة
أن أربط الزمن ،
بحبل طعم من ليل صاف ..

الاندلس .. الحب والحياة والموت في كل مكان في قصائده ، في شعر لوركا ، لا بد ان نلتقي رموزا وصورا لحياة وموت دموي ، امتزج بها الحب.. الحياة والموت يتعاكسان ، يتداخلان بحميمية في قصائده ، لدرجة يبدو معها مستحيلا ان تفصل موضوعا عن آخر ، فهما ممتزجان في صور ذات معنيين ، او معنى واحد مزدوج ، نفهم اولهما عندما نقرأ القصيدة للمرة الاولى ، ونكتشف ثانيهما حين نتعمق في ابعاد المعاني .. ونحن نرافقه في خطواته ضمن اطر ذاك العالم الساحر والمجهول ، الواقعي والبعيد .

والملاحظ ان شعر المرحلة الاندلسية الاولى مليء بالشكوى ، والانين ، مليء بالدموع ، انها « دموع عربية » ، ينهلها الشاعر من نبع « عين الدمع في غرناطة » .

هو يتساءل في « اغنية الخريف » : هل يمكن ان تضيع آلامه ، مثلما يضيع همس اوراق الشجر ؟ هل يكون الموت يقظة الروح الحقيقية؟ ويتسلل الشك الى نفسه ، ليتحكم به اكثر واكثر كل يوم ، ويبتعد الله عن دنياه ، قبل ان يختفي :

سمعت الحجار
تقول : الله بعيد .

ابتداء من كتاب القصائد ، يشرع « ملاك غرناطة » في البحث عن رؤية واضحة للعالم ، مستعيرا من بايكر ، وروبن داريو ، وخوان رامون خيمنيز ، نغمة لرومانسية ، ورمزية بالية ، وتتخذ قصائده بعد ذلك ، شخصية مستقلة عن كل الشعراء ، فينسج قلمه السحري قصائد لا تدرك اعماقها وابعاد معانيها بسهولة ، وتجعل منه شاعرا يبتدع عالما خاصا به ، غنيا بالمعاني الواقعية ـ الرمزية ، غنيا بالصور الخلابة ، المؤثرة ، التي تبرهن على قدرة الشاعر الرهيبة ، في ضبط ادق تفاصيل الحياة ، وحيث يتراءى شبح الموت ، من خلال الستر الشفافة ، لذاك العالم الخارق ، الذي يسكنه ناس غير مرئيين ... كل ذلك من خلال عبارة محكمة ، يعرف الشاعر ان يختارها ، ويتفنن في سبكها ضمن اطار ابياته .

هو يحب المقارنة ، يحيي الطبيعة : فجباله تنظر نحو البعيد ، وناره تعض الشفق ، وطرقاته ترتعد ، وكنائسه تزار في البعيد . هو يعطي صفة انسانية للاشياء ، فالزفرات تجذف في مياه غرناطة ، وكرومه تبكي ... هو مفرم بالاستعارات من كل لون :

ذراع من الليل
يتسلل عبر نافذتي ...

هو يحب التشبيه ، فالقيثارة :

تبكي رتيبة
مثلما تبكي المياه ،
مثلما يبكي الهواء
فوق الجبل ...

نحن في عام ١٩٢٩ : اسم لوركا يملأ الدنيا نغما عذبا ، بعيد عن الحب والكراهية ، والموت والحياة ... يعاد طبع كتبه الاولى ... الشهرة تسعى اليه دون ان يسعى اليها . هو موجود في كل مكان ، في مسارح مدريد ، واندية غرناطة .. هو يطوف غاليسيا استورياس ، مدسية ، فالنسيا وبرشلونة ، محاضرا ، منشدا وملقيا قصائده الرائعة ، بصوته الغريب الساحر .

ثم يرحل الشاعر الى نيويورك ، في ربيع العام نفسه ، ويزور في طريقه باريس ، ولندن ، ويستقر في المدينة الكبيرة ليدرس اللغة الانكليزية في جامعة كولومبيا ...

وبواعث الرحيل ؟ هل تلخصت في الشوق لاكتشاف دنيا جديدة ؟

الواقع ان الشاعر كان يجتاز مرحلة صعبة في حياته ، يعيش أزمة عاطفية سحقته كلية ، فهو يصرح بذلك لصديقه الناقد سباستيان غاش في احدى رسائله له ، ويكتب رسالة أخرى الى صديقه الحميم كارلوس مورلا لينش ، من على ظهر الباخرة التي تقله الى نيويورك : « أنا منحط القوى ، ومليء بالحنين . انا عطش لارضي » . ويضيف : « لا أدري لم رحلت ؟ اني أنظر الى صورتي في مرآة حجرتي الضيقة في السفينة ، ولا اتعرف الى نفسي . أشعر اني غريب عن نفسي » .

ولكن هل يجد فيديريكو غارسيا لوركا نفسه في تلك المدينة الشاسعة ، الغريبة ، والعدائية ؟ هل تشفي نيويورك نزف جراحه ؟ هل تبعث في نفسه الاطمئنان ؟ وهل يشعر ببهجة الاعياد قرب نهر الهدسون حيث استقر ؟

الواقع ان الشاعر لم يعد نفسه ، هو آخر لا يشبه في شيء طفل غرناطة البريء ، الذي كان يفشل في قصيدة الطبيعة ، الشاعر الذي كان يعتقد انه يعرف كل شيء ، لم يعد يعرف شيئا :

لا تسألوني شيئا ، لقد رأيت ان الاشياء ،
عندما تبحث عن مجراها لا تلتقي الا الفراغ .

بعيدا عن وطنه ، وقد شفي بالكاد من صدمة حب بائس ، لا يجد لوركا في المدينة الشاسعة ، الغريبة الا انعكاسا متعددا ليأسه ، وللفراغ العاطفي الذي يملأ دنياه ـ الفتاة الصغيرة المختنقة في بئر ـ ... هو يزرع حنينه الى غرناطة ، تلك الارض البعيدة ، في كل مكان ـ عودة من النزهة ـ ، ويطل في تلك المدينة التي لا تنام على هاوية الموت .

الموت يرقص في مدينة بلا حضارة ، أو حضارتها زائفة ، ومريضة بلا جذور ... حضارة مادية مرعبة ، لا أساس لها ، تستغل الانسان ، تسحق الانسان ، فهو يسألها : أين جذورها ؟ أين روحها ؟ في الآلة ؟ في المادة ؟ في أحياء العبيد ؟ في نشرات الاحصاء ؟

طفل غرناطة البريء لم يعد طفلا ، يغني الطفولة والزيتون ، يغني جمال السهول والوديان... انه شاعر يصرخ رافضا زيف المدينة، هو يقول في قصيدة « رقصة الموت » :

هذا المكان ليس غريبا للرقص . أقول ذلك !
القناع الاسود سيرقص بين أعمدة الدم والارقام
بين أعاصير الذهب ، وأنين العاطلين عن العمل

هو يثور بشدة على ذاك العالم الذي مات فيه الحب : « نيويورك معمل عقاقير واعلانات » ويشهر في « صرخة نحو روما » ، بالذي لم يستطع أن يقيم مملكة للمحبة منذ زمن سان بيار ...

هو يرفض مدينة الحجارة الزائفة : نيويورك مدينة الكوابيس ، مدينة السراديب ، نيويورك جبال من الحديد والاسمنت ، مدينة مصنوعة من أحجار ضخمة ، يسمع فيها أصوات حيوانات غريبة ، هو يبتعد عنها برعب :

في كل الايام يقتل في نيويورك
أربعة ملايين من ذكر البط
خمسة ملايين خنزير
ألفا حمامة للذة المحتضرين
مليون حمل
ومليونا ديك

واميركا تختنق في دخان المصانع والآلة ، تختنق من الدموع ، تثقلها سلاسل العبودية ويصم آذانها الضجيج ... هو يسمع الصوت المخنوق للمضطهدين في المصارف ، في المستشفيات ، في أعماق المناجم ، فيتحكم فيه الغضب ، ويدعو بالفاظ نبوية لهدم المدينة الخاطئة ، التي تمثل كل مدن العالم ، التي يستغل فيها الانسان الانسان ، وينشد ملحمة ذل العبيد وأسرهم :

آه ! يا هارلم ، المهددة من جماهير أزياء بلا رؤوس .

في نيويورك ، يشعر فيديريكو غارسيا لوركا ، انه وقع في فخ، أو في مصيدة شياطينية ، وان العالم المحسوس ليس الا خدعة ، ويجب أن نوقظ النيام في مهد الوهم . هو يصرخ في « المدينة التي لا تنام » :

الحياة ليست حلما ! حذار ! حذار ! حذار !
نحن نتدهور الى اسفل سلالم لناكل ثراء .

والعالم الذي يريد أن يبنيه بعد أن يهدم المدينة ؟ انه عالم بعيد عن عوالم السرياليين الجميلة ، التي يبنونها في أحلامهم ، ويجدون ذواتهم في أطرها .

في نيويورك ، يطل فيديريكو غارسيا لوركا على عالم الموت ، فطريق الحياة مسدود لزوما ، والجلادون ينتظرون ضحاياهم : القمر الباهت في أعالي السماء تنق فيه الضفادع ، والكلاب تنبح معلنة بدء المآتم ، وتتقدم الاعشاب والحشرات نحو الوجوه الجامدة ، وهي تطلق صيحات فرح ، قبل أن تنقض على الضحية ، فالام تقول لابنها :

الاعشاب تأتي يا بني ، حضر هيكك ...

بعد المرحلة الاندلسية الفلكلورية ، يتخلى لوركا عن الوزن الشعري المنغم ، لينطلق الى دنيا تجربة جمالية ، بعيدة عن العوالم السابقة ، مختارا أسلوب قصائد تجريدية ، مستوحاة من شعراء طليعة السريالية ...

شاعر في نيويورك ؟ لم يعد لوركا يغني ، انما هو يصرخ ، يصرخ في الفراغ ، ويبشر في الصحراء ، وقد تبخر ندى القصائد الاولى الرائعة ، وبات عالمه الجديد كئيبا ، فقصائده رغم مضمونها السريالي لا توحي بالتهلل والفرح ، وهي على العكس ، تكشف عن تمزق حقيقي في شرايين « ملاك غرناطة » ، وتكشف عن صورة لعالم كئيب ممسوخ، مشحون بثقل الكوابيس ، ومسحوق تحت شبح الموت .

شاعر في نيويورك ؟ صرخة رفض وثورة ، واعتراض على الظلم واستغلال الانسان ، يصبح « العبد » رمزا لكل المضطهدين في الدنيا.. ويأخذ فيديريكو غارسيا لوركا على عاتقه ، أن يرسم قبح المدينة الخاطئة ...

ويدفعه جنون الرؤيا الى الهذيان ، فيتراءى له « الجمع في دبوس » ، و « الخنافس سكرى من الانيسون » ، وعشر وردات من كبريت وهن » و :

البقرة الجريحة نامت
أشجار وسواق تسلقت طول قرنيها
وخضمها يدمي في السماء

و :

نيويورك الوحل ،
نيويورك ذات أسنان وموت ...

نحن نتحرك في أطر عالم لا يمكن أن تنتشق فيه هواء صافيا ، نحن في مقر وهمي للسريالية ، يعبر فيه لوركا عن الالم واليأس والموت فقط ... عالم حزين ، لا يذوق فيه الشاعر طعم العسل والافراح ، عالم الاوبئة : طين ، وحل ، غدير ، مياه قمئة ، وسم وارسنيك ، عالم عامي ومبتذل ، حيث يتقيأ الناس ويبولون ، عالم مليء بالحشرات التي تبعث الاشمئزاز ، وتهدد سلامة الانسان : خطر ، عقارب ، دود أرض ، ضفادع سامة ، تماسيح ، خنازير وفئران :

... وعدة عبيد يرتقون الطوابق ليوزعوا شرابا سحريا لفار
... الحرب تمر باكية ، مع مليون فار رمادي ...

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٧ ـ

لوركا والتحول العربي في شعره

ـ تابع المنشور على الصفحة ـ ٣٢ ـ

على كل ،

يبقى ان اضيف ان أشهر النقاد الاميركان والانكليز ، الذين كانوا مولعين بشعر المرحلة الاندلسية ، شهروا بالكتاب ، واعتقدوا ان لوركا ضيع طريقه الشعري ، عندما أراد آن يتبع صديقه سلفادور دالي في دروب التجريد ... يقول الناقد جون كدو :« ان شاعر في نيويورك) أسوأ شعر لوركا » ..

أريد أن أغفو لحظة ،
لحظة ، دقيقة ، قرنا ،
ولكن ليعرف الجميع اني لست ميتا .
(ديوان التماريت)

بعد رحلته المرهقة الى مدينة الوحل والطين ، حيث سحقته وحدته ، وتكاتف حزنه ضبابا رماديا باردا في أعماقه ، وحيث غنى قصائد ميتافيزيقية نفتح أمامنا ابواب عالم الموت ، يعود لوركا في صيف عام ١٩٣٠ الى غرناطة ، مرورا بكوبا ... يعود لوركا ليرمي زاده الشعري السريالي في بئر ، لينهل من روحانية أرض امتزج بترابها ، غنى ماضيها وحاضرها، يعود لينهل من مياه غرناطة الصافية، ويطفىء ظمأه الى الراحة والاطمئنان ، ويتعرف الى وجهه في مرآة غرفته ، ويؤكد انه ما زال حيا رغم تعبه وارهاقه .

ينشر لوركا آنئذ كتابه « غناء طيب العرب » ، ويقدم مسرحية « الاسكافية الاعجوبية » ، وينتهي من كتابة مسرحية « عندما تكون خمس سنوات قد مرت » ، ويقرأ لبعض الاصدقاء قصائد : « شاعر في نيويورك » ، يرثي مصارع الثيران ايناسيو سانش ماخياز ، الذي مات في الحلبة ، ثم يعلن لجماعة من الاصدقاء ـ في عام ١٩٣٥ ـ بينهم المستشرق الكبير اميليو غارسيا غوميز ، يعلن لوركا انه نظم سلسلة من قصائد وغزالة ، تكريما لذكرى اولئك الشعراء الغرناطيين، سيجمعها في « ديوان » يحمل اسم الروض الذي تعيش فيه عائلته قرب غرناطة ، أي « ديوان التماريت » . والتماريت روض عربي الطابع .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان المستشرق اميليو غارسيا غوميز ، كان قد ترجم ونشر في عام ١٩٣٠ قصائد عربية أندلسية ، لشعراء القرن الثالث عشر ، من غرب ، وشرق ، ووسط الاندلس . وقد قدم للكتاب بدراسة وافية عن الشعر العربي ، يقرر فيها ان اسبانيا أعطت الاسلام غنائيتها الخاصة ، فتولدت فيها الازجال والموشحات ، وان الاسلام أعطى اسبانيا غنائيته التقليدية ، وقصيدة الصحراء ... ويبين اثر انتقال الشعر العربي الى الاندلس ...

والواقع ان آراء النقاد والادباء ، قد اختلفت وتضاربت بالنسبة لعربية « ديوان التماريت » ...

يرى المستشرق اميليو غارسيا غوميز ، ان مضمون قصائد لوركا لا ينطبق مع تحديد القصيدة العربية ، أو الغزالة ـ القصيدة الغنائية الفارسية ـ ويضيف ان « قصائد ديوان التماريت تبقى شرعيا (تركية) » . ويلمح بعدئذ الى ان المرء يمكن أن يكتشف في ديوان التماريت بعض الشبه مع الغنائية العربية ...

ويعتقد الناقد والشاعر لويس سيرنودا ان لوركا رغب آن يعطي كتابه « لونا شرقيا (من الممكن انه سمع بفستوسليتشر ديفان ـ ديوان لغوتيه الالماني) ، وربما مدفوعا بتأسيس كاتدرائية للدراسات العربية في جامعة غرناطة » . ويعتقد بالتالي ان شرقية ديوان التماريت ، كانت أقل وضوحا مما في قصائد الكتب الاخرى .

ويرى الناقد غيليارمو دياز بلاخا ان قصائد ديوان التماريت ، هي بداية لخطوة ثابتة ، يحاول معها فيديريكو غارسيا لوركا ، ان يتخطى بها عالمه السريالي الكئيب ، ليطأ أرض الواقع ، « فمعها تغلق دائرة المغامرة الثقافية لفارسيا لوركا » العائد الى التقليد القديم النيو ـ شعبي ، العائد ليتسلل الى الاعماق التاريخية والروحانية الشرقية لارضه ... هي محاولة ليخرج الشاعر معها الى النور ، يضيع في قلوب الاطفال ، ليجد نفسه :

كما أضيع في قلب بعض الاطفال
ضعت مرارا عديدة في البحر
جاهلا للماء ، كنت أفتش
عن موت أضواء كانت تتلف .

والديوان يتألف من ١٢ غزالة ، ونسع قصائد : المرأة النائمة ، المرأة الشبيهة بالارض الملساء ، الوردة السرية ، الصبية الرمزية... ولم يطبع الكتاب في حياة الشاعر ، وانما طبعه عام ١٩٤٠ ، معهد الدراسات العربية في غرناطة .

ولا بد من الاشارة هنا ، ان لوركا كان رابع وآخر الشعراء الذين أحبوا الحضارة العربية ، وأخذوا على عاتقهم انشاد مجدها ، والذين أطلق عليهم الشاعر دي موغر لقب « الحمرائيون » .

تأثر لوركا بانخيل غانيفات ، أحد أشهر كتاب جيل ١٨٩٨ ، وكاتب « غرناطة الجميلة » ، الذي قوى في نفسه حب الحضارة العربية ، حب الفخر ، وحب غرناطة خاصة ، التي حج اليها في القرن التاسع عشر مسافرون مشهورون ، أمثال : واشنطن ايرفنغ ، ونيوفيل غوتيه ، وأثنى عليها : شاتوبريان ، دوماس ، وفيكتور هيغو .

فلوركا أكثر من أي شاعر آخر من أبناء جيله ، كان الابن الروحي لجيل ١٨٩٨ ، واكتشف في غرناطة بانوراما كئيبة ، حيث تنعكس صورة قدر كئيب لمدينة ، ما زالت تحتفظ وبصون ذلك القصر العجيب : الحمراء ... ففي أندلسه الفجرية ، ما زال يفوح عطر وأريج غرناطة العربية ... وهو يصرح لجريدة « الشمس » في مدريد، في العاشر من حزيران عام ١٩٣٦ ، عن الحضارة العربية : « حضارة رائعة ، شعر ، علم فلك ، هندسة ، ورقة فريدة في التعالم ، اختفت لتحل محلها مدينة بائسة ، خائفة ، وارض بؤساء ، حيث تتحرك اليوم أسوأ بورجوازية اسبانيا » .

وكان لوركا قد ألف مع نخبة من المثقفين الغرناطيين ، جماعة تنشد القصائد المنقولة للشاعر فيلياسبيا بعاطفية وكآبة لا حد لها . ففيلياسبيا هو تلميذ لزوريلا ، وسلفادور رويدا (أول الشعراء الحمرائيين) ، وكان ينقل للجماهير شرقية زوريلا ... ومباشرة بعد فيلياسبيا أطل لوركا لينضم الى قافلة الحمرائيين ... وهذا ما يؤكده خوزيه مورا غوارنيدو ، صديق لوركا الحميم ، في كتابه « فيديريكو غارسيا لوركا ، وعالمه » .

ومهما يكن فان التحول العربي في شعر لوركا ليس مفاجئا ، فهو قد غنى دائما بروج الحمراء القديمة ، وشبهها بنجوم ذات ضوء أحمر ... غنى الاندلس :

للاندلس
دروب طويلة حمراء ...

وهو يسمع من غرفته مياه نافورة الحديقة تغني ... هو يغني غرناطة : ضوءها وثلجها وأنهارها وزفراتها ودموعها :

أيها البرج القديم ! ابك
بدموعك الشرقية .
لقد غنى كآبتها :
ويأتي فرسان طوال القامة ،
وسيدات ذات أناقة حزينة ،
سمراوات من الحنين ،
لامس غنت فيه البلابل ،

وهو عندما ينظر الى مياه البئر ، يرى وجه حبيبته الغرناطية :

وحلمت على وجه المياه ،
بفتاة غرناطة السمراء ...

«تبت يداك اذا تقاعستا..»

عبثا تمط بأذرع الضحكات يا وجه البشاره
عبثا تشيع الدفء في اوصال من سقطوا —
وهم أحياء ... يستجدون ... يستجدون
عبثا من الكلمات يبذرها ضرير القلب والعينين تبرق
في ضمير الليل ومضه
عبثا تفجر في عيون الورد جمره

* * *

من ذا يلطخ جبهة الاعصار بالطين المسود
من ذا يفل قوائم « الانسان » وهي تسن فوق الساعد
المحروق
فوق جماجم الاطفال —
سيف مروقها القتّال
من ذا يحاصر بالهشيم الهش في الوطن الفقير
سريان تيار الحريق الحر في سلك الورق
من ذا ينافس لعبة الشارات في كف الفسق

* * *

وقع الخيار عليك يا درع القبيله
وانا لها
ومعي من البرد المعتق في ضلوع النكبة السوداء ما يكفي —
لشل مسيرة الايام في قلب المدينه
ومعي السكينه
ومعي بقايا شعبي المسحـــوق حتى السقف فـــي
« عز الظهيره »
ووصية من والدي
تبت يداك اذا تقاعستا وسيف الثأر مسلط

* * *

حلب — **محمود علي السعيد**

الواضح اذن ، ان لوركا اراد في قصائد « ديوان التماريت » ان يعود لغرناطيته البعيدة . لكن الشاعر لم يعد يقف في منتصف الطريق بين واصف للعادات والاخلاق ، والرسام الماهر في تلوين الصـــور ، يبكي ماضيا غنت فيه البلابل ، ويلون بالدم أنهر ودروب الاندلس ... انه يعود لارضه ، لتاريخها ، لحضارتها القديمة ، في محاولة يتخلص معها نهائيا من زاده السريالي ، فتفقد هذه الغنائية الزاهية قوافيها ، واشكالها ، ولم تعد حدائق الخلفاء تسترعي انتباهه ، ورغم انه لـــم يقلد شعراء الاسلام ، فهو يستعير صناعتهم ...

نحن نتعرف من جديد الى غرناطة الكئيبة ، ونسمع من جديـــد زفرات مياهها :

في كل الامسيات في غرناطه ،
في كل الامسيات يموت طفل
في كل الامسيات تجلس المياه ،
لتتحادث مع أصدقائها .

وبالاضافة الى ذلك فان مواضيع كثيرة فـي ديـــوان التماريت، تذكرنا بالغنائية العربية ، مثل موضوع الزيارة الليلية .

لا يريد الليل أن يهبط
حتى لا تأتيـــن ،
ولا استطيع انا الذهاب .

كما ان الحان الحب في بعض قصائده ، تذكرنا بالطهارة البدوية :

دعيني في شوق لكواكب عتمه
ولكن لا تظهري خصرك الرطب

وحبيبته التي امتدت بينه وبينها الدروب ، زهرة ياسمين :

شفتاك فجر بلا حدود

وفيديريكو غارسيا لوركا ، ينافس الشعراء العرب في حبهـــم لمدنهم الاندلسية الزاهية ... فليس هناك مدن انثوية الطابع اكثـــر من المدن الاسلامية في الاندلس ، مدن عشقها شعراؤها وغنوا جمالها ، وتحسروا لفراقها ... وأبيات لوركا ليست الا تعبيرا عن سعادة الحج الى ينابيع غرناطة ، ووديانها ، وحمرائها ... ان ابيات لوركا فـــي غرناطة رائعة ، حادة الاحساس ، بجمال ماضيها وحاضرها :

غرناطة قمر ،
غارق في اللبلاب ...

وهو يتمنى ان يغتسل ويموت بدفء مياهها :

أريد أن أهبط الى البئر
أريد أن أموت ، وموتي على دفعات ،
أريد أن أملأ قلبي زبدا
حتى أرى جريح المياه

وأيا ما كان فان أقرب القصائد الى الغنائية العربية ، تبقـــى قصيدة « غزالة السوق الصباحية » : فلوركا ينتظر حبيبته في باب البيرة ، أقدم أبواب غرناطة العربية ، ليرسم جمالها :

عبر باب البيرة ،
أتمنى أن أراك تمرين
حتى اعرف اسمك
وأشرع ابكي ....
أي قمر رمادي للتاسعة
يدمي خدك ؟
من يقطف خالك
للظى في الثلج

فنحن رغم اننا نجد صورة الحب اليائس ، وصـــورة الموت ، والاجواء المحمومة « لشاعر في نيويورك » .. في قصائد « ديـــوان التماريت » ، التي تبقى شرعيا لوركية ، لا نستطيع الا أن نعتـــرف ان التحول العربي في شعر « مشعوذ الاندلس » تحول أصيل ، فـــي تلك المرحلة الاندلسية الاخيرة ، وان قصـــائد « ديوان التماريت » عربيـــة الجذور .

ناديا ظافر شعبان